



قديماً قالت العرب: "الطبعُ غالبُ التطبعِ" ، وقالت: "العادةُ أملُكُ بالإنسانِ من الأدبِ" . وقالوا أيضاً: "العادةُ طبيعةُ ثانيةٍ" . هذه أمثلةٌ عربيةٌ جاءت عن خبرةٍ وتجربةٍ، فالذي طبعَ على المكر والخديعة، والغش والكذب، والتلُّون والتقلب، يصعبُ أن تراه ثقةً صادقاً عدلاً (لا يعني ذلك أن الصادق في إصلاح نفسه لا ينجح)، والذي يُخفي خلقةً من أخلاقه.

أو طبعاً من طباعه، مهما حاول إخفاءها فإنها لا بدَّ أن تظهر يوماً، طال الدهر أو قصر؛ لأنَّ الأخلاق لا تخفي، والتملُّق والتصنُّع والتکلف لا يدوم ولا يبقى، كما قال حكيمُ العرب:

**ومَهْمَا تَكُنْ عَنْدَ امْرِئٍ مِّنْ خَلِيقَةٍ \*\* إِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ**

ولقد اهتمَّ العرب بهذه المسألة اهتماماً واضحاً، فقد دلّوا على أمثالهم بقصصٍ من واقع حياتهم، فمن ذلك ما قاله أحد العرب: دخلت البادية فإذا بعجوز بين يديها شاة مقتولة، وإلى جانبها جُرُوٌّ ذئب، وهي تبكي، فقالت: أتدرِّي ما هذا؟ قلت: لا. قالت: هذا جُرُوٌّ ذئب أخذناه صغيراً، وأدخلناه بيتنا، وأرضعناه من لبن الشاة، فلما كبر قتل الشاة كما ترى، وأنسدَت تقول:

**بَقَرْتَ شُوَيْهِي وَفَجَعْتَ قَلِيلِي \*\* وَأَنْتَ لِشَاتِنَا ابْنُ رَبِّي**

**غُذِيَتْ بِدَرِّهَا وَنَشَأَتْ مَعَهَا \*\* فَمَنْ أَنْبَاكَ أَنْ أَبَاكَ ذِيْبَ**

**إِذَا كَانَ الطَّبَاعُ طَبَاعُ سَوَّءٍ \*\* فَلَا أَدْبُ يَفِدُ وَلَا أَدِيبٌ**

وهذا أعرابي يذكر لنا حادثة عايشها فيقول: كنت في سفر، فضاللت الطريق، فرأيت بيتي في الغلة فأتيته، فإذا به أعرابية فلما رأتهني قالت: من تكون؟ قلت ضيف، قالت: أهلاً ومرحباً بالضيف إنزل على الرحب والسعنة، قال: فنزلت فقدمت لي طعاماً فأكلت، وماء فشربت، فبينما أنا على ذلك، إذ أقبل صاحب البيت فقال من هذا؟ فقالت: ضيف، فقال: لا أهلاً ولا مرحباً، مالنا وللضيف، فلما سمعتُ كلامه، ركبت من ساعتي وسررت، فلما كان من الغد، رأيت بيتي في الغلة، فقصدته، فإذا فيه أعرابية، فلما رأتهني قالت: من تكون؟ قلت ضيف، قالت: لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف، مالنا وللضيف. فبينما هي تكلمني، إذ أقبل صاحب البيت، فلما رأني قال: من هذا؟ قالت: ضيف، قال: مرحباً وأهلاً بالضيف، ثم أتى ب الطعام حسن فأكلت، وماء فشربت، فتذكرة ما مر بي بالأمس فتبسمت، فقال: ممَّ تبسمُك؟ فقصصتُ عليه ما صار مع الأعرابية وزوجها، وما سمعت

منه ومن زوجته. فقال: لا تعجب، إن تلك الأعرابية التي رأيتها أختي، وإن زوجها أخو امرأتي هذه، فغلب على كل طبعه. وقبل هذا وذاك، يقول الله تبارك وتعالى: "وَالْبَلْدُ الطَّيْبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكَدًا كَذَلِكَ نُصَرَّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ". قال ابن عباس: "هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر". ولقد جاء في صحيح البخاري من حديث أبي موسى الأشعري أنَّ رسول الله ﷺ قال: "مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَفِيَّةٌ فَبَلَّتِ الْمَاءُ فَأَنْبَتَ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرَبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيَعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً. فَذَلِكَ مَثَلٌ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلَمَ وَعَلِمَ، وَمَثَلٌ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدًى اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَتُ بِهِ".

### والآن نعود إلى السؤال المطروح: لماذا لا يثق الشعب بوعود النظام السوري؟

لا يمكن لأحدٍ من الناس (داخل القطر وخارجـه) أن يثق بهذا النظام البعثـي الأـسـدـي؛ وذلك لما يـليـ:

**الأـولـ:** أن طـبعـ وـخـلـيقـةـ هـذـاـ النـظـامـ هـيـ الـزـورـ وـالـكـذـبـ، وـالـغـشـ وـالـغـبـنـ، وـالـجـوـرـ وـالـظـلـمـ، وـالـلـقـمـ وـالـدـنـاءـةـ، وـالـحـقـ وـالـعـدـاوـةـ، وـالـبـغـضـ وـالـكـراـهـيـةـ، وـالـجـشـعـ وـالـأـنـانـيـةـ، وـالـغـلـاظـةـ وـالـفـظـاظـةـ، وـالـغـدـرـ وـالـخـيـانـةـ، وـالـخـسـنةـ وـالـنـذـالـةـ... وكـماـ رـأـيـناـ أـنـ الـعـادـةـ طـبـيـعـةـ ثـانـيـةـ كـمـاـ قـالـ الـعـرـبـ، فـكـيـفـ يـثـقـ الـمـظـلـومـ بـالـظـالـمـ، وـالـمـحـتـاجـ بـالـجـشـعـ الـأـنـانـيـ، وـالـطـبـيـبـ الـرـفـيقـ بـالـفـظـ الغـلـيـظـ، وـالـوـفـيـ الصـدـوقـ بـالـخـائـنـ الـغـدـارـ، وـالـعـفـيـفـ الـشـرـيفـ بـالـخـسـيـسـ النـذـلـ؟!

**الـثـانـيـ:** أـنـ الشـعـبـ السـوـرـيـ رـأـيـ منـ الـأـمـثـلـةـ وـالـمـاـشـاـدـ الـوـاقـعـيـةـ منـ هـذـاـ النـظـامـ ماـ يـدـلـلـ عـلـىـ أـنـ كـلـ صـفـةـ منـ الصـفـاتـ الـذـمـيـةـ الـمـذـكـورـةـ وـغـيـرـهـاـ خـلـيقـةـ وـطـبـعـ منـ طـبـاعـ وـأـخـلـاقـ هـذـاـ النـظـامـ، فـكـيـفـ يـثـقـونـ بـهـ؟ـ رـأـواـ كـيـفـ أـعـلـنـ المـدـعـوـ بـشـارـ الـعـفـوـ عنـ كـلـ الـمـهـجـرـينـ الـفـارـيـنـ منـ ظـلـمـهـ وـظـلـمـ أـسـلـافـهــ إـثـرـ دـخـولـ الـأـمـرـيـكـاـنـ دـوـلـةـ الـعـرـاـقــ فـعـادـ الـمـهـجـرـونـ السـوـرـيـوـنـ منـ الـثـمـانـيـاتـ إـلـىـ بـلـادـهـ بـعـدـمـ أـعـلـنـ النـظـامـ الـعـفـوـ عـنـهـمـ...ـ فـلـمـ دـخـلـواـ الـحـدـودـ السـوـرـيـةـ تـلـقـتـهـمـ الـأـجـهـزـةـ الـأـمـنـيـةـ بـالـاعـتـقـالـ وـالـزـجـ فيـ السـجـوـنـ، وـلـاـ أـنـسـيـ وـالـلـهــ ماـ قـالـ لـيـ رـجـلـ شـيـبـةـ رـمـيـ فـيـ زـنـزـانـةـ، وـرـمـيـ وـلـدـهـ فـيـ أـخـرـىـ، لـاـ أـنـسـيـ ماـ قـالـهـ بـعـدـ نـزـولـهـ مـنـ غـرـفـةـ السـجـوـنـ، وـلـاـ أـنـسـيـ وـالـلـهــ فـكـيـفـ يـثـقـ الشـعـبـ بـهـذـاـ النـظـامـ؟ـ وـقـدـ ضـرـبـ بـالـسـيـاطـ عـلـىـ رـجـلـيـ، وـسـمـعـ أـقـذرـ الـمـسـبـاتـ، وـهـوـ اـبـنـ السـبـعـيـنـ(وـهـوـ مـنـ مـدـيـنـةـ إـعـزـازـ الـمـحـاـصـرـةـ الـيـوـمـ بـدـبـابـاتـ الـنـظـامـ وـعـنـاصـرـ الـشـبـيـحـيـةـ وـالـأـمـنـيـةـ، فـرـجـ اللـهـ عـنـهـاـ وـعـنـ أـخـوـاتـهـاـ مـنـ الـمـدـنـ السـوـرـيـةـ)ـ قـالـ لـيـ:ـ لـيـتـ صـارـوـخـاـ أـمـريـكـيـاـ نـزـلـ بـبـيـتـنـاـ، وـنـحـنـ فـيـ الـعـرـاـقــ فـأـوـدـيـ بـالـعـاـلـةـ جـمـيـعـهـاـ، وـلـمـ نـعـدـ إـلـىـ بـلـدـنـاـ، لـنـلـقـيـ مـنـ هـؤـلـاءـ مـاـ نـلـقـاهــ

فـكـيـفـ يـثـقـ الشـعـبـ بـهـذـاـ النـظـامـ؟ـ وـقـدـ خـرـجـ وـزـرـأـهـ وـإـلـاـمـيـوـهـ دـاعـيـنـ الـمـهـجـرـيـنـ إـلـىـ تـرـكـيـاـ مـنـ أـهـالـيـ جـسـرـ الشـغـورـ وـمـاـ حـولـهـ بـأـنـ يـعـودـوـ إـلـىـ قـرـاهـمـ وـبـيـوـتـهــ لـأـنـ الـأـمـنـ وـالـسـلـامـ يـنـتـظـرـهــ...ـ فـلـمـ صـدـقـ ذـلـكـ بـعـضـ الـعـوـاـلـيــ، كـانـ النـتـيـجـةـ قـتـلـ عـائـلـتـيـنـ عـائـلـتـيـنـ مـنـ تـرـكـيـاـ، فـكـيـفـ يـثـقـ النـاسـ بـهـذـاـ النـظـامـ؟ـ

**الـثـالـثـ:** أـنـ هـذـاـ النـظـامـ مـسـلـسـلـ بـالـجـرـائـمـ وـالـأـثـامـ، وـمـؤـصـلـ بـالـسـيـئـ منـ الـأـخـلـاقـ، وـمـاـ كـانـ أـبـوـهـ صـالـحـاـ، فـطـيـبـ وـصـلـاحـ الـآـبـاءـ يـنـفـعـ الـذـرـيـةـ وـالـأـبـنـاءـ، كـماـ قـالـ الـبـارـئـ جـلـ وـعـلاــ وـكـانـ أـبـوـهـمـاـ صـالـحـاـ، وـبـالـمـقـاـبـلـ فـشـنـاعـةـ الـآـبـاءـ وـقـذـارـتـهـمـ وـسـوـءـ أـخـلـاقـهـمـ تـنـسـحـبـ إـلـىـ الـذـرـيـةـ وـالـأـبـنـاءـ، فـأـنـتـقـلـتـ جـرـائـمـ الـأـبـ حـافـظـ وـأـخـيـهـ رـفـعـتـ إـلـىـ الـابـنـ بـشـارـ وـأـخـيـهـ مـاـهـرـ وـمـنـ حـولـهـمـ...ـ وـبـعـدـ هـذـاـ لـنـسـىـ قـوـلـهـ تـبـارـكـ وـتـعـالـىـ:ـ وـالـذـيـ خـبـثـ لـاـ يـخـرـجـ إـلـاـ نـكـداــ.ـ فـكـيـفـ يـثـقـ الشـعـبـ بـمـنـ كـانـ أـبـوـهـ فـاسـدـاـ طـالـحـاـ، مـجـرـمـاـ قـاتـلـاـ، طـاغـيـةـ ظـالـمـاـ...ـ؟ـ

**الـرـابـعـ:** أـنـ حـالـ هـذـاـ النـظـامـ مـثـلـ حـالـ الرـاعـيـ الـكـذـابـ الـذـيـ أـوـصـلـهـ الـكـذـبـ عـلـىـ أـهـلـ قـرـيـتـهـ إـلـىـ أـنـ تـرـكـوـهـ فـيـ الـنـهـاـيـةـ فـرـيـسـةـ للـلـوـحـوـشـ وـالـذـئـابـ:ـ وـعـدـ الرـئـيـسـ بـالـإـصـلـاحــ؟ـ فـجـاءـ الـقـتـلـ وـالـسـجـنـ وـالـاعـتـقـالــ، وـعـدـ بـرـفعـ حـالـةـ الـطـوـارـيــ، فـأـرـفـعـ عـدـ الـقـتـلـ وـزـادـ،ـ يـقـوـلـ:ـ إـنـ التـعـدـيلـ فـيـ الـدـسـتـورـ يـحـتـاجـ إـلـىـ أـيـامـ أـوـ شـهـورـ...ـ وـقـدـ غـيـرـ الـدـسـتـورـ لـيـفـصـلـهـ عـلـىـ عمرـهـ فـيـ لـحظـاتـ...ـ فـكـيـفـ يـثـقـ الشـعـبـ بـالـرـاعـيـ الـكـذـابــ؟ـ

**الـخـامـسـ:** أـنـ هـذـاـ النـظـامـ غـدـيـ منـ خـيـرـاتـ الـبـلـادـ، وـرـشـفـ مـنـ حـلـيـبـ أـغـنـامـهـ وـأـبـقـارـهـ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـشـعـرـ بـعـدـ ذـلـكـ بـالـاـنـتـمـاءـ لـهـذـاـ

الشعب، ولم يجد في نفسه الحبُّ والرفق والرحمة بأطفاله وشيوخه ونسائه، بل وزروعه وثماره وحيواناته، فها هو يقتل الأطفال ولم يشعر أنهم منه، ويقتل النساء في بانياس وغيرها ولم يشعر برابطٍ أخوي نحوهنَّ، ويقتل الأبقار في جسر الشغور ولم تتغير طباعُه بألبانها، وأشعل النيران في زروع الفلاحين، ولم يشعر بأثر غذائها الذي نبت جسمه وقوى من حبوبها وثمارها! أجل لن ينفعه ذلك، حتى ينفع جرُو الذئب عنابةُ الأعرابية وحليبُ شاتها.

ولذلك تجد الشعب السوري يواصل انتفاضته، وتوسّع مساحة مظاهراته، وتتأتي في الليل والنهار... مع وعود هذا النظام بإصلاح، ورفع حالة الطوارئ... فلا ثقة بوعود بشار؛ لأن طبعه وخلقه الكذب والزور، وتاريخه مسلسل بالسيئات والشروع، وكما قال العربي:

كل امرئ صائر يوماً لشيمته \*\*\* وإن تخلَّق أخلاقاً إلى حين

المصادر: